أبو العـــلاء المعرى

التفاؤل والأثرة عند الشيخ

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٥ —

النسل ، الزواج

والنسل أفضل ما فعلتَ بها ... فإذا سعيت له فمن عقـــل

إذا شئت يوماً أن تقارن حرة ... من الناس فاختر قومها وتجارها

إذا خطب الحسناء كهل وناشىء ... فإن العفاً فيها شفيع مشفع

ولا تُزهدنها عُدمه ، إن مُده ... لأبرك من صاع الكبير وأنفع

وما لأخى الستين قدرة سائر ... إليها ولكن عجزه ليس يُدفع

ويُخفض فى كل المواضع ذمه ... وإن كان يُدنى فى المحل ويُرفع

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب ... إليه فقـــد حلت البهله[1]

هو الشيخ لم يرضه أهـــله ... ولم يُرض فى فعله أهـله

فلا يتزوج أخو الأربعين ... إلا مجـــربة كهـــله

رأى الشيب فى عارضيه المسن (م) فنعم القرين له الشهله[2]

وواحدة كفتك فلا تجاوز ... إلى أخرى تجىء بمؤلمات

ولا يتأهلن شيخ مُقـــل ... بمُعصرة من المتنعمات[3]

فإن الفقر عيب ، إن أضيفت ... إليه السن جاء بمؤلمات

إذا خطب الزهراء شيخ له غنى ... وناشىء عُدم آثرت من تعانق

إذا كانت لك امرأة عجوز ... فلا تأخذ بهـا أبداً كعابا

فإن كانت أقل بهـــاء وجه ... فأجدر أن تكون أقل عابا

(١) البهلة — بالفتح وبضم — اللعنة ، ومنه حديث أبى بكر: من ولى من أمر الناس شيئاً فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة الله .

(٢) الشهلة : الكهلة العاقلة ، العجوز ، وذلك اسمها خاصة ، وامرأة شهلة كهلة ، ولا يقال : رجل شهل كهل ولا يوصف بذلك إلا أن ابن دريد حكى : رجل شهل كهل

(٣) المعصر والمعصرة هي التى بلغت عصر شبابها وأدركت

وقال آخر (هى جمعيات هازلة يحاول اعضاؤها أن يظهروا بمظهر الجد) .

ولكن ، مهما يقولوا ويتهكموا وينتقدوا ، ما فتىء مطمح كل كاتب وكل عالم وكل باحث فى البلاد الراقيـة الوصول إلى عضوية هذه المجامع التى يعتقد الكثيرون أن الكفاية والعقل يقدمان فيها على الثروة وشرف الأصل . وقد قال الفيلسون رينان فى ذلك : (إن صوت العلم قد يكون احيانا ضعيفا تجاه الجرأة والدجل ، ولكن هذا الصوت متى خفت ضجيج الشارع يستمر مسموعا ولا يسمع غيره . لذلك ومهما تشتد الحملات على المجامع العلمية ستكون الغلبة دائما فى النهاية لهذه المجامع لأنها الحارس الأمين على الأساليب الصحيحة ، وإذا كانت محترمة فى نظر عدد قليل ، فان هذا العدد القليل هو على حق . ولا يبقى إلا الحق) .

وتعرفون حكاية (بوانكاره) وقد يكون فيها أسطع دليل على مكانة هذه المجامع . وصل هـــذا الرجل العبقرى إلى رياسة الجمهورية وظل مع ذلك عضوا فى الأكاديمية ، لا تشغله مهام الدولة عن حضور معظم جلسات المجمع ، بل كان يشترك فى التصويت عند انتخاب عضو جديد . وحدث أكثر من مرة أن فاز بالانتخاب من لم يكن قد أعطاه صوته وكان يوقع بصفة كونه رئيسا للدولة مرسوم تعيين الفائز وإن لم يكن مرشحه .

وعندما زار بوانكاره انجلترا فى شهر يونيو سنة ١٩١٣ وقف ملك الانجليز وهو ملك يستطيع أن يقول كما قال شارلكان إن الشمس لاتغيب عن أملاكه — وقف يرحب بضيفه رئيس الجمهورية الحليفة فقال :

« إنى سعيد بأن أرى فى ضيافتى رجلا ممتازا بخدمه الجليلة ، ذا شهرة بعيدة ليس فى عالم السياسة فحسب ، بل ايضا فى تلك الجمعية الأكاديمية التى هى منذ ثلاثة قرون موضع فخر لفرنسا تحسدها عليه اوربا جمعاء » .

أيها السادة — من الأقوال المأثورة عند الفرنجة أن لا شىء ادعى إلى الملل والسأم من الخطب الأكاديمية . وكان نصيبى من هذه الحفلة خطبة أكاديمية فى أكاديمية عن الأكاديميات ، فاذا كنت قد أملت وأسأمت فأرجو عذرا .

أنطون الجميل

وحسن الشمس فى الأيام باق وإن بَجّت من الكبر اللعابا

ومن جمع الضرات يطلب لذة فقد بات بالإضرار غير سديد

معاملة الصغار

ورفقاً بالأصاغر كى يقولوا غدونا بالجميل معاملينا
فأطفال الأكابر إن يوقروا يُروا يوماً رجالاً كاملينا

لا تزدرُن صغاراً فى ملاعبهم فجائز أن يُروا سادات أقوام
وأكرموا الطفل عن نكر يقال له فإن يعش يُدع كيلا بعد أعوام

... وبالوالدين إحسانا

العيش ماض فأكرم والديك به والأم أولى بإكرام وإحسان
وحبها الحمل والإرضاع تدمه أمران بالفضل نالا كل إنسان

تحمّلْ عن أبيك الثقل يوما فإن الشيخ قد ضعفت قواه
أتى بك عن قضاء لم ترده وآثر أن تفوز بما حواه

حفظ الصحة

دارِ نفسك وإن بلغت سن الهرم كما يُدارى الوليد .

إفراط الشبع آفة على كل حيوان :

سُنُك خير لك من درة زهراء تعشى أعين الناظرين[1]
تجبت للضارب فى غمرة لم يطع الناهين والآمرين
يكسر باللؤلؤ من جهله خُشُباً عتت عن أكل الكاسرين
تجزأ ولا تجعل لحتفك علة بإكثار طعم ، إن ذلك لُوم[2]

لا تُربلنّ وكن رئبال مأسدة إن الرشاد ينادى البادن الرَّبِلا[3]

الشيبة

إذا ما خبت نار الشبيبة ساءنى ولو نُص لى بين النجوم خباء
إن الشبيبة نار ، إن أردت بها أمراً فبادره ، إن الدهر مطفئها

(١) زهراء : بيضاء صافية .
(٢) تجزأ بالشىء قنع واكتفى به ، اكتف بجزء من أكلك . وفى طبعة الزوميات تجرأ بالراء ، ولا معنى لها .
(٣) الربالة : كثرة اللحم وهو ربل وربل .

السفر

لو ملكت الرحيل جولت فى الآفاق (م)

حتى يملنى التجويل

أدب السلوك[1]

الكتاب المختوم يشتمل على سر مكتوم ، فإن فضضته ولم يأذن من أمنك عليه فقد أوضعت[2] فى سبيل الخائنين

لا يصبر القوم فى مغنى الشغل يد على الطعام إلى أن يرفع السور[3]
ولا يكن ذاك إلا بعد كفهم أكفهم ، ويسير الفعل مأثور
فإن تقرب خدام الفتى حُرضا والضيف يأكل رأى منه محسور[4]

لكل زمان ما يشاكله

أعدد لكل زمان ما يشاكله إن البراقع يُستشفى بالشُّبُم[5]
فإن ضربت بسيف الهند فى ومَدٍ فسيف إفرنجة المخبوء للشيم[6]

المرء شبه زمانه

وإن الفتى فيما أرى برمانه لأشبه منه شيمة بأبيه[7]

الناس

والناس بالناس من حَضْر وبادية
بعض لبعض - وإن لم يشعروا خدم -[8]

(١) قال عبد الله بن المبارك : إذا وصف لى رجل له علم الأولين والآخرين لا أتأسف على فوت لقائه ، وإذا سمعت رجلا له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتأسف على فوته .
(٢) مشيت ، فى حديث « من نظر فى كتاب أخيه بغير إذنه فانما ينظر فى النار .
(٣) سور بمعنى عرس وولية « شفاء الغليل » . وفى « النهاية » فى حديث جابر أن رسول الله « ص » قال لأصحابه قوموا فقد صنع جابر سوراً أي طعاما يدعو الناس اليه ، واللفظة فارسية .
(٤) الحرض : الأشنان تغسل به الثياب والأيدى على أثر الطعام .
(٥) الشابان خيطان فى البرقع تشده المرأة بهما فى قفاها .
(٦) ومد : حر . المخبوء المعد المدخر . الشيم : البرد .
(٧) فى أمالى القالى : هشام بن عروة : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . وروى ابن هندو فى كتابه « الكلم الروحانية فى الحكم اليونانية » لأفلاطون : لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم
(٨) الحضر — بكون الضاد — أهل الحضر ، يقال : قوم حضر وقوم سفر (شرح ديوان زهير لثعلب .

إن خالفوك ولم يجروا خلافهم
شرا فلا بأس؛ إن الناس أخياف (١)

قال الخليفة العظيم عمر :
« أعقل الناس أعذرهم للناس » .

وقال رشيد بن خليفة : « اشكر المحسن ومن لايسيء ، واعذر الناس فيما يظهر منهم ولا تلمهم ، فلكل من الموجودات طبع خاص »

ومن عرف الناس وتأريخهم ووراثتهم القريبة والبعيدة (L' atavisme) ومنشأ ما يسمى (رذائل) وأسبابها عذر ولم يستعجب مما يشاهد . يقول الشيخ :

يلقاك بالماء النمير الفتى وفي ضمير النفس نار تقد
يعطيك لفظا لينا مسه وشل حد السيف ما يعتقد

وهذان البيتان إن دل ظاهرهما على معايب فى الناس نفيها ماينبيء بارتقاء لهم عجيب ، فقد أمسى هذا الفتى الذئب الجشع الحاسد المحتقد سافك دم أخيه من أجل ثعلب ظفر به أو يربوع ، ومن أجل مستنقع برده أو مطيطة (٢) — قد أمسى هذا الفتى وارث تلك الغرائز يلقاك أحسن لقاء ، ويخاطبك خطابا جميلا ، وفى الضمير والمعتقد ما أبان الشيخ . فإذا طال تكلفه مايتكلفه واستمر اعتياده مايعتاده « وعادة المرء تدعى طبعه الثانى (٣) » كما يقول شيخنا حاكى بعد أدهار باطنه ظاهره ، أشبه جوانيُّه برانيه ، وحبك منه اليوم ذاك اللقاء وذاك العطاء ، وان كان فى ضمير النفس نار تقد ، وساء ما يعتقد .

... كذلك سخرناها لكم

قال الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه (طريق الهجرتين وباب السعادتين) : « ... ولما انتهى أبو عيسى الوراق إلى حيث انتهت إليه أرباب المقالات طاش عقله ، ولم يتسع لحكمة إيلام الحيوان وذبحه صنف كتابا سماه (النوح على البهائم) فأقام عليها المآتم ، وناح وباح بالزندقة الصراح » ،

وقال العلامة الفيومى فى (المصباح) : « ... ويحرمون — يعنى البراهمة — لحوم الحيوان ، ويستدلون بدليل عقلى فيقولون : حيوان بريء من الذنب والعدوان فإيلامه ظلم ، خارج عن الحكمة . وأجيب بظهور الحكمة ؛ وهو أنه استُسخر للانسان تشريفا له عليه ، وإكراما له كما استُسخر النبات للحيوان تشريفا للحيوان عليه . وأيضا فلو ترك حتى يموت حتف أنفه مع كثرة تناسله أدى إلى إمتلاء الأفنية والرحاب وغالب المواضع، فيتغير منه الهواء ، ويكثر به الفناء ، فيجوز ذبحه تحصيلا للمصلحة ، وهى تقوية بدن الإنسان ، ودفعا لهذه المفسدة العظيمة . وإذا ظهرت الحكمة انتفى القول بالظلم والعبث » .

وشيخنا المعرى يقول داعيا إلى الارتفاق به :

يأكل أطايب الأعفاء ، من سمح بالرَّسل فى أيام السَّفاء(١)،
ويلج الغمار بأذل السمار(٢) ، وتثنى الضيقان ، على الجائد بملء الجفان .
لا يثنى عليك فصيل بالأصيل . ومن اخضرت شربَته (٣) بالوادِ
اكمأتْ مربده بالتمر الجلاد (٤) . ومن ركب العامَة (٥) فى طلب الصيد كانت بطون عياله قبوراً للحيتان . ومن تتبع بقوسه موارد الوحش كثر فى منزله الوشيق (٦) .

وقال (الوليـــد) : النبع ليس بثمر
وأخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع (٧)

(١) من المجاز : هؤلاء أخياف أى مختلفون
(٢) المطيطة : الماء المختلط بالطين ، الذى يتمطط : اى يتمدد لكثرته (القاتق) .
(٣) فى أمثالهم : العادة طبيعة خامسة . العادة تؤدم الطبيعة .

(١) (الاعفاء) جمع عفو وهو الجحش . (السفاء) قلة اللبن ، يقال : ناقة سفى وهي ضد الصفى ، والمعنى أن من سفى فرسه اللبن فى أيام قلته طرد عليه الوحش فصادها (أبو العلاء) . العفو : الجحش سمى به لأنه يعفى عن الركوب والاعمال (القاتق) .
(٢) « الغمار » جمع غمرة وهى الشدة (السمار) اللبن المذيق ، والمعنى أن من سقى فرسه سماراً وثق بجريه فولج غمار الحرب (أبو العلاء) .
(٣) اخضرت شربته أى صار عليها طحلب من كثرة الماء وادمان السقي (أبو العلاء) الشربة مثل الحويض يحفر حول النخلة والشجر ، يملأ ماء يسع ريها فتروي منه ، والجمع شرب وشربات (التاج) .
(٤) اكمأت المربد أي صار فيه تمر يوصف بالكمأة ، والعرب تصف التمر بالكميت . والجلاد جمع جلدة ، وهى التمرة الشديدة التي لا تتوسف أى تتقشر (أبو العلاء) .
(٥) « العامة » ضرب من السفن (أبو العلاء) . وفى الأساس : وركبوا العام أى الأرماث الواحد عامة لأنها تعوم فى الماء ، وفيه : وركبوا الرمث فى البحر وهو الطوف : وهو من قرب منفوخ فيها .
(٦) « الوشيق » اللحم المقدد طولا ، والقطعة وشيقة (أبو العلاء) .
(٧) فى « شرح سقط الزند » :
« أراد الوليد بن عبيد البحترى وذلك أنه قال فى شعره :

جِلَّة ابلك وعشارها [١] . أربوت ضيفك غزارها ، وملأت جفانك وذارها [٢] ، لن تبكيك بكارها إذا السنة كثر قطارها ، وذبح فى الروضة فارها [٣] ، واعتم بالروضة بهارها [٤] . سالم إبلك شرارها .

الأَثَرة L'égoïsme

إن تُرد أن تخص حراً من الناس (٥) بخير فخص نفسك قبله [٥]

إذا لم يكن لى بالشقيقة منزل فلاظهرت عزّاؤها والشقائق [٦]

إذا كان إكرامى صديقى واجبا
فإكرام نفسى — لا محالة — أوجب

ومن أطال خلاجا فى مودته فهجره لك خير من تلافيه [٧]

إذا ولى صديقك قولٌ عنه ، فإنما يُنزل بالوادى ذى الشجر والروض العميم [٨] ، ويقدح بزند المغار [٩] ما دام وارىَ النار ،

= وعيرتنى خلال العدم كونة والنبع عريان ، مافى عوده ثمر

يعنى بالنبع الشجر الذى يعمل منه القسى ، قال البحترى : « إن النبع لا ثمر له » وقد أخطأ فى قوله فان قطيع الوحش التى تصاد من الظباء والحمر والبقر الوحشية — من ثمار النبع ، وذلك أن القسى إنما تبرى من النبع ، ويرمى فى الوحش عنها ، وتصاد بها ، فالوحش إذن من ثمر النبع ... » .
و « عريان » مصروف ، وقد ترك البحترى صرفه ضرورة .

(١) الجلة : المسان — الكبار — من الابل يكون واحداً وجمعاً ويقع على الذكر والأنثى « اللسان » . عشراء أتى على حملها عشرة أشهر والجمع عشار ، ومثله نفساء ونفاس ، ولا ثالث لهما (المصباح) .

(٢) وذارها جمع وذرة وهى القطعة من اللحم (أبو العلاء) .

(٣) ذبح الغار للمسك وجهو هاهنا استعارة للروض (أبو العلاء) .

(٤) اعتم النبت إذا طال وكثر (أبو العلاء) . (البهار) : نبت طيب الريح : العرار .

(٥) روى الميدانى فى (مجمع الأمثال) هذا المثل : من لم يحسن الى نفسه لم يحسن الى غيره .

(٦) (الشقيقة) على مثال فعيلة هو يوم (نقا الحسن) وفيه قتل بسطام بن قيس فهو يوم نقا الحسن ويوم الشقيقة . والشقيقة الفرجة بين الجبلين من جبال الرمل ينبت العشب (تعليق فى نسخة مخطوطة من «اللزوميات» فى دار الكتب المصرية عمرها الله !)
(العزاء) المطر الشديد الوابل (الشقائق) سحائب تبعجت بالأمطار الغدقة ، والشقائق هو هذا الزهر الأحمر المعروف .

(٧) (خلاجا) نزاعا ، جذابا .

(٨) كل ما اجتمع وكثر عميم والجمع عمم ، والعميم : الطويل من الرجال والنبات اللسان .

(٩) المغار شجر يتخذ منه الزناد ، المرخ والعفار شجرتان فيهما نار ليس فى غيرهما من الشجر (اللسان) وفى أمثالهم : (فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار) وقد رواه الميدانى وشرحه .

فإذا خبت ناره بطل اختياره . وإذا السقاء لم يمسك الماء فهو زيادة فى مشقة السافر ، لا تاو لمفسد [١] تاو [٢] ، فإن الذيب جدير بالتعذيب .

آخ فى الله الأخوان ، ولا تقل لبعيرك : إخّ فى دار الهوان [٣] .

ادفع الشر إذا جاء بشر وتواضع إنما أنت بشر [٤]

بأى لسان ذامى متجاهل علىّ ، وخفق الريح فىّ ثناء
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

إذا ما قلت نثراً أو نظيما تتبع سارقو الألفاظ لفظى

كأنى إذا طلت الزمان وأهله رجعت وعندى للأنام طوائل [٥]
وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
بإخفاء شمس ضوءها متكامل
وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل .
وطال اعترافى بالزمان وصرفه فلست أبالى من تغول الغوائل
فلو بان عضدى ما تأسف منكبى
ولو مات زندى ما بكته الأنامل [٦]

وكم من طالب أمدى سباقى دوين مكانىَ السبع الشدادا
ويطعن فى علاى وإن شمسى ليأنف أن يكون له نجادا
ويظهر لى مودته مقالا ويبغضنى ضميراً واعتقاداً
لى الشرف الذى يطأ الثريا مع الفضل الذى بهر العبادا
وأحسب أن قلبى لو عصانى فعاود ما وجدت له افتقادا

تعاطوا مكانى وقد فقدوا فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحونى وما هجتهم كما ينبح الكلب ضوء القمر

---

(١) أوى له : رق ورثى له ، وأشفق عليه ، يأوى مأوية ومأواة .
(٢) تاو : هالك توى كرضى يتوى وطيء تقول توى كسعى
(٣) إخ — يقال للبعير إذا زجر ليبرك ولا فعل له ، لا يقال أخخته بل أنخته .
(٤) من أمثالهم : الشر للشر خلق ، قد يدفع الشر بمثله إذا أعياك غيره وأرسطو — كما رووا — يقول : (دفع الشر بالشر جلد ، ودفع الشر بالخير فضيلة) والقول ما قال الشيخ ، ونطق المثل
(٥) (طلت) فقت (الطوائل) الترات . الذحول .
(٦) العضد بضم الضاد وسكونها وكسرها . وهو يذكر ويؤنث .